الوعي المأزوم:

رؤية نفسية في تمزق الهوية والجذور النفسية للعنف المرتد نحو الذات والإرهاب

أ.د. سامر جميل رضوان

Prof. Dr. Samer Rudwan

أستاذ في علم النفس الإكلينيكي

جامعة نزوى سلطنة عمان

University of Nizwa-Oman

مقدمة

يحاول الموضوع المطروح الإجابة عن سؤال شديد التعقيد: لماذا غرق المجتمع العربي في دوامة من العنف نسفت أساس وجوده، ولماذا من الصعب إنشاء كيان اجتماعي متجانس يقوم على أساس عقد اجتماعي تصالحي لا عنفي، ومنتج وفعال على المستوى الإنساني والعالمي. يتبع الموضوع المطروح منهج علم نفس أعماقي-اجتماعي تارة وتارة من علم نفس الأنا وعلاقة الموضوع، وأخرى من تمثل ومعالجة المعلومات، على الرغم من الكثير من المحاذير والتحفظات فيما يتعلق بأوضاع شديدة التعقيد إلا أنها محاولة لإنارة جانب لا يدعي الصحة المطلقة، ولكنه يستحق التأمل، لأنه يمثل قضية أساسها نفسي-تربوي-اجتماعي. ربما هناك بعض التشابه لتشابه المنهج المسقط اجتماعياً، لكن الحديث هنا عن الإنسان "المأزوم" و"المصدوم"، وكذلك عن لمجتمع "المأزوم" و"المصدوم". هو ليس مجرد تغيير أسماء-عن أزمة الهوية، وتمزقها. عن الهوية الأزمة، والهوية المصدومة التي تنفصل أجزائها إلى مكونات موجودة مع بعضها لكنها منقسمة، منفصلة، عمودياً وأفقياً. عن جناة وضحايا يتبادلون الأدوار باستمرار، عن تلك الحلقة المفرغة من العبثية والتي لا تجيد سوى لعبة الموت ولا يعرف فكرها سوى العدم.

مدخل كل مشكلة تحمل بذور الحل في طياتها، المشكلة بحد ذاتها هي طريقة الحل للصراع الداخلي أو الخارجي الكامن خلف المشكلة. وعندما ننظر لتشخيص المشكلة بأنها محاولة من محاولات الحل فإنها تفتح لنا آفاق من الحلول أو بدائل الحلول. فإن تم إدراك أن لب المشكلة يكمن في هذا الجانب أو ذاك، فإن هذا الإدراك وحده غير كاف كلية لاتخاذ الخطوة نحو الحل، إذ أن الإدراك قد يعمي الوعي.

السؤال: ما الذي يمكن عمله للتوصل إلى حل يعتقد أنه الأمثل للتعامل مع هذه الأوضاع الحياتية العدمية، أو كيف يمكن لنا استغلال هذه المعرفة في سبيل بناء مستقبل أفضل لا نكون فيه كذلك. وهنا تكون مساحة الإجابات واسعة جداً وتفتح لنا الكثير من الإمكانيات التي نعتقد أنها ستقودنا لذلك. ما التأثيرات التي تمتلكها أوضاعنا الراهنة على رؤيتنا للحل المستقبلي؟ إذا عرفنا أن السبب يكمن في الماضي وأن الماضي لا يمكن تغييره فهل يمكننا تعديل الآثار الناجمة عن ذلك الماضي؟

توصيف بنية الواقع توحى بأن الحل موجود بناء على هذا التوصيف. وقد يغويننا هذا ويدفعنا بالفعل إلى تصور الحل وطرحه طالما هناك من يود، لو أن هذا قد طرح الحل وأن هذا الآخر مطلوب منه الحل.

مجتمعاتنا الاجتماعية تجمعات منغلقة على الداخل، لم تحظ ببنية الوعي فيها بالتعديل والتغيير على مر العصور، وظيفتها الأساسية اجترار الماضي وتضخيم الذات والإعلاء من شأنها كآلية تعويضية تشويهية، وقمع وكبح أي تغيير، والتغيير والتعديل الذي ذ-إن حصل- يحصل وظيفته عدم التغيير. إن مآلات كل ما حصل ويحصل تشير إلى ذلك.

تطرح مشكلة ازدواجية الوعي (اللاواعي) مشكلة أخرى، في التعامل مع الداخل والخارج، في رؤية ثنائية، متعارضة، يصعب التوفيق بينها، ترسخت عبر العصور وما زالت، وتحمل في طياتها نظرة استعلائية وعنصرية تنفي وجود الآخر على مستوى الوعي، وتنظر إليه نظرة دونية وعلى أنه مشروع استلاب ونهب وغزو وسبي، مقابل الإعلاء الدفاعي للذات المتضخمة. ومن البديهي أن تؤدي مثل تلك النظرة إلى العنف والإرهاب، كنزعة انتقامية تدميرية، موجهة ضد الآخر ظاهرياً، إلا أنها تهدف داخلياً إلى تدمير الشر الكامن في الذات، والذي لا ينتهي إلا بالفناء.

إن الحركات الإرهابية والأنظمة الديكتاتورية والديماغوجية، كما الشعوب المأزومة مغموسة الوعي، تحمل "جينة" فنائها بذاتها، وتقود نفسها شيئاً فشيئاً إلى الزوال بأشكال ومظاهر متنوعة.

وتحاول هذه المقاربة الربط بين ما يحصل في العالم اليوم، وبشكل خاص في البلاد العربية، وبين تشتت الوعي وتأزمه، وتمزق الهوية، والانفصال التام للخبرة عن موضوعها، وذلك من منظور علم نفس الأزمة والصدمات واستجابات ما بعد الصدمة التي على ما بدا لي عبر الملاحظة أنها "اضطراب ما بعد الصدمة المجتمعية الممتدة extensive social post-traumatic stress disorders أصيبت والتي تمتد آثارها لعقود طويلة بل لقرون على ما يبدو عبر التوارث، ومن خلال المخزون الجمعي الهذيان، كوسيلة للتكيف مع الواقع المؤلم، والذي تتبناه الأجيال على أنه حقيقة لا شكل بها وتمتنع عن كل برهان.

The subject seeks to answer a very complex question: Why has Arab society collapsed into a cycle of violence that has destroyed the very basis of its existence and why it is difficult to create a homogeneous social unity based on a non-violent, productive and effective social and humanitarian contract.? The subject is followed by a deep psycho-social approach, sometimes based on ego-psychological and other approaches, despite many reservations about very complex situations. It is an attempt to shed light on an aspect that does not claim absolute correctness because it is a psycho - educational - social problem. We talk about the "stunted" and "shocked" people and all the "stunted" and "shocked" communities that have fallen into trouble and are unable to get out of it. It is not just a name change - about the identity crisis and identity-split proportions of social and individual personalities that exist among themselves, but are split vertically and horizontally. It is also about the perpetrators and victims who constantly exchange roles, about this vicious circle of absurdity that only knows the game of death and only the idea of nothingness. Access to any problem is the germ of

a solution. The problem itself is the resolution of the internal or external conflict that underlies the problem. When we try to diagnose the problem as a solution attempt, solution perspectives or alternative solutions open up.

الإنسان المأزوم في مجتمع مصدوم

تشنت الأوضاع الحياتية المقيتة الوعي الإنساني وتدفعه إلى خبرة الحياة في أقصى تطرفها وتعاش الخبرات على أنها متناقضة فيها انفصال عن الواقع وعدم اتساق وتصبح مداخل الخبرة الجديدة مسدودة فيغرق الوعي حينئذ بفيض عارم من الشذرات المتناثرة التي لا تجد لنفسها مكان في بنيتها. عندئذ يصبح من العسير فهم الحاضر المعاش، ووضعه في سياق منطقي يغني الخبرة ويكسبها أبعاداً جديدة تتيح التعامل مع مشكلاته، ويصبح المدخل الوحيد إلى فهم هذا الحاضر رده إلى الماضي. وهذا الرد إلى الماضي ليس مجرد استعادة ذكرى أو غرف من خبراته للمساعدة على حل مشكلات الحاضر كما هو في الحالة الاعتيادية بل هي محاولة إعادة إحياء الماضي وعيشه مرة أخرى بطريقة يصورها الوعي المشوه بأنها ستكون أفضل من الماضي الفعلي نفسه، ويحصل هذا الفعل من دون أي إدراك لطبيعة ما يفعله ناهيك عن اندفاع قهري لهذا الإحياء. وهي آلية معروفة في التحليل النفسي تحت قهر التكرار Repetition Compulsion، فتستحوذ عليه حالة من التوق الإدماني، بسلطة مطلقة لا واعية نحو إعادة إحياء تلك الحالة الأولى المتخيلة، بانتظار عودة ذلك "المهدي" الذي يمتلك قوى خارقة ليخرجها من أزمتها الوجودية ويكرر معها صورة الماضي بالنسخة نفسها دون تعديل أو تغيير.

وقهر التكرار هذا هو نوع من التفكير الخرافي الذي يستمد جذوره من وقائع روى التاريخ أنها حصلت في الماضي، يضاف إليها الكثير من الخيال الوهمي الذاتي الذي يضيف على هذا الماضي قيمة إبهار وجذب مقارنة مع الواقع المعاش الطبيعي.

إن احتقار الحياة وتقديس الموت في ظل شذوذ الغريزة قد يحصل تحت هذه الآلية، والنكوص إلى الهويات الممزقة والزائفة مع إسقاط صورة الماضي وأحداثه على الحاضر، يحصل في جزء منه تحت هذه الآلية.

وفي ظل الجهل والعجز والتخلف، والتهميش، وتمزق الهوية تنقلب الغرائز، لتصبح غرائز الموت والعدم مصدر المتعة الوحيد، الذي يستمد منه محرضو الرعاع لذتهم، فيصورون لهم أن الحياة دنس لا يمكن تطهيرها إلا بالتخلص منها، بعد التخلص على أكبر عدد ممكن من الآخر "المشيطن". وتحت هذا الضغط الذي يعاني منه الرعاع فإن الوعي المزيف يصور لهم تلك الحالة على أنها نوع من الخلاص التطهيري، الذي يطهر أنفسهم من تلك الشرور القابعة فيهم والتي في حال إدراكها وغياب آلية التعامل معها، تنفي أسباب الوجود الفردي. إلا أن الانقسام والإسقاط كآلية دفاعية يمنع هذا الانتفاء مؤقتاً؛ انقسام المشاعر المحتقنة إلى قسمين أبيض وأسود، لا ظلال بينهما. وبما أن الفرد مدفوع تحت قهر التكرار إلى استعادة حالة هذيانه مثالية من الأمان والصفاء، فإنه ينظر لنفسه على أنه هو الخير المطلق والآخر هو الشر المطلق. إلا أنه عبثاً يحاول؛ إذ أنه كلما حطم الشر الذي يعتقد زاد الإحساس بالانقسام وازدادت أثقال آليات الدفاع للحفاظ على هذا الانقسام صافياً دون اختلاط. وتحت هذا الضغط تجد غريزة الموت سلطتها، إذ لا يمكن قهر الشر إلا بقتل النفس.

يلتقط محرضو الرعاع هذه الرغبة اللاشعورية في اللحظة التاريخية المناسبة ويغلفونها أكثر فأكثر بهويات عقائدية دينية طائفية عرقية وسياسية، ويقودون الآلاف لحتفهم طوعاً محققين بذلك لذتهم الوحيدة التي يعرفونها الموت للرعاع ومشبعين رغبة الرعاع بالتخلص من الحياة، تلك التي صوروها لهم على أنها دنس لا تستحق أن تعاش، وينتظرهم التعويض الأكبر في مكان ما تكون فيه الغرائز منفلة من عقالها مباحة وغير ممنوعة في حالة شره دائم لإشباع لا ينتهي. تصور يشبه الإشباع الأولي للرغبة منسلخ عن الواقع ولا تربطه به صلة بخلق صور ذهنية خادعة ولا متناهية تخديره الهدف، وشالة للإرادة والوعي، تكتسب شرعيتها من نصوص إيديولوجية مفبركة وفق القوى التي تمتلك السلطة النفسية والمادية العليا.

تنبثق اللحظة التاريخية عندما تتأزم الهوية وتجد المجتمعات أنفسها في حالة وهم الهوية، فراغ الهوية. الفراغ في الهوية يقود بدوره إلى نكوص دائم إلى أفكار استبدادية لدى فئة واسعة من الناس، وما ينبثق عنه من تطرف. وهذا ما يحصل عندما تفقد الثقة بالتنظيمات السياسية القائمة أو تهزم نتيجة الحرب أو عندما ينهار مجتمع لسبب ما فإن الهوية تصبح مزعزة لدى طبقات واسعة من الشعب. فتمتزج المخاوف الواقعية مع مخاوف الطفولة متحولة إلى مزاج هلع يهدد بالانفجار. فإذا ما أضيفت إلى ذلك الأزمات الاقتصادية فإن الغالبية العظمى من الناس تصبح مستعدة للعدوى بالشعارات التعصبية. فإما أن يميل المرء للدفاع عن النظام المهدد ضد التحديث، كما هو الحال في العودة إلى الأصولية الدينية. المتعصبة، ويعيش كل العقليات التقدمية على أنها

معتد مهدد للمناقب الخاصة التي أصبحت هشة. أو يتلاءم كلية مع اتجاه انقلابي، كما هو الحال في الثورات الدموية للتاريخ، يعد بالخلاص من خلال استئصال متطرف للتنظيمات والسلطات القديمة، إلا أنها في النهاية تعود لتمارس ما كانت تدعي أنها تحاربه. والتاريخ أكبر شاهد على ذلك.

ليس من المهم حينئذ ما هي الصفات التي تطلق: رجال الله، رجال الدين، رجال الطائفة، رجال المذهب، رجال الخلافة، رجال الصليب، رجال عمر وزيد، أصحاب النخوة والرجولة، رجال الأرض والعرض، رجال الوطن، رجال التاريخ: النتيجة واحدة. الاتجاه نحو المزيد من التصلب والجمود وسحب الحدود إلى أقصى طرفها والتي تتجلى بتحقيق الآخر وإطلاق أسوأ الصفات عليه وسيطرة لغة تحريضية وتبخيسية وإعلاء من شأن الذات والجماعة الخاصة بنعتها بصفات قدسية. وتصبح جرائم الجماعة الخاصة مبررة وجرائم الطرف الآخر غير مبررة تتطلب العقاب، وليس مهماً من يتحالف مع من ومن ضد من، إذ تكفي أبسط الأفعال ليتحول الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق (يهدف الإسقاط بالأصل إلى التخفيف من حدة مشاعر مؤلمة إذا ما تم إدراكها، كروية الشر الداخلي في الإنسان نفسه على سبيل المثال، وعندما يفشل الإسقاط في تأدية هذه الوظيفة بالنسبة لموضوع الإسقاط فإنه يتحول من موضوع إسقاط لآخر بسهولة، خاصة إذا وجد من يدرك هذه الآلية فيتلاعب بها -كالديماغوجيين مثلاً- لمنع إدراك الشر الداخلي كحقيقة داخلية وليست خارجية ومن هنا خطورته) وفي ظل هذه الأوضاع تطفو على السطح تلك الفئات من المجاميع المهمشة اقتصادياً أو اجتماعياً أو نفسياً أو دينياً أو سياسياً أو كلها معاً والتي تم في الماضي ممارسة أشد أنواع السحق والقهر عليها، لتصبح لها اليد الطولى، إذ أنها هي تلك التي وبسبب ما مورس عليها من تسلط تربوي وديني واجتماعي وسياسي تحولت الحياة (الشر في داخلها المسقط على الخارج) بالنسبة لها إلى دنس لا بد من تعجيل نهايتها، بعد التفات مفاجئ لها من تلك القوى التي أفرزتها بالأصل.

بين هؤلاء وأولئك يتشكل حلف لاشعوري من التواطؤ النفسي psychological Collision (المفهوم من اللاتينية colludere ويعني اللعب معاً) يكون فيه اتفاق غير واع في الغالب، بين طرفين أو أكثر تلتقي فيها الميول المرضية (المصالح الخبيثة) لدى الطرفين بتعشيق غريبة كالمفتاح في القفل. أساس التواطؤ الصراعات غير المحلولة في مجالات أساسية من مجالات النمو النفسي الاجتماعي المعلقة، التي لم يتم حلها واستيعابها فيلعب الشركاء مع بعضهم البعض ودون وعي، أدواراً تكاملية نمطية ومقولة، تضمن استمرارية التابع والمتبوع فيتبادل الطرفان التحقيق

المتبادل للحاجات النفسية غير المحققة بتفويض الآخر بأن يحيي له تلك النزعة مقابل أن يسمح هذا للآخر بممارسة النزوعات المعاكسة. إلا أن التواطؤ لا يستمر للأبد، فقد تنقلب الأدوار فجأة، أو تتغير.

هنا يتساوى الأضداد، وجميعهم يسير وفق الآلية نفسها: وعي الأول هو لاوعي الثاني ووعي الثاني وهو لاوعي الأول، فيمارسون لعبة الإفناء والإفناء المضاد إلى ما لانهاية، في حين يوجه محرضو الرعاع وبالتواطؤ مع نخب استبدادية طاقة تلك الأضداد باستمرار كي لا ترتد عليهم. وهنا ليس مهم من هو المُشَيِّط، المهم هو الآخر، الذي يتم تجريده دائماً من خصائصه الإنسانية بإسقاط كل شروخ الذات التي لا يستطيع تحملها عليه، فيتم تكفيره واحتقاره ونعته بأبغس الصفات، واتهامه بالعنصرية والتطرف والتخلف وانهاء بلغة القذف والذم. الآخر المشطين هو دائماً الآخر الإمبريالي، الشيوعي، الكافر، الطائفي، مع تبديل مستمر للآخر الشيطان.

في التواطؤ يمكن لأحد الطرفين أن يستمد من الطرف الآخر السلطة المطلقة مقابل تحقيق رغبات الطرف الأول: تجربة ميلغرام تبين نوعاً من التواطؤ، فعندما يقوم شخص ما بتحرير شخص آخر من تحمل المسؤولية، فيقوم هذا متوهماً امتلاكه السلطة المطلقة بإشباع غريزته المنفلتة من عقالها، مقابل إرضاء مانح السلطة، ومانح السلطة نفسه يشبع دافعه للخضوع والانصياع.

قهر التكرار والنكوص حجاب وهمي يصد إدراك الهمجية في سياقها الراهن المرتبط بإيديولوجيات دينية وقومية فاشية وعنصرية تقوم على وهم بعث الماضي بوصفه الحالة التي تثبت الصورة على مسرح الحدث التاريخي الموهوم. ويجد في النصوص الدينية والإيديولوجية ما يعزز هذا الهذيان باستمرار.

يجد أفراد المجتمع المأزوم والممزق الهوية أنفسهم تحت ضغط صراعات، واعية وغير واعية، متضاربة وشديدة، كأفراد وكتلة (كتلة الأسرة، العائلة، كتلة الحي، كتلة القرية أو المدينة كتلة العشيرة، كتلة القبيلة، كتلة الدولة). ولكنهم بحكم القهر والتسلط، كنمط تربوي تطبيعي والذي هو منهم وفيهم، بقانون الحلقة المفرغة، مجبرون في الوقت نفسه على الحفاظ على تماسكهم الظاهري بفعل قوى مختلفة. وفي ظل ذلك يستجيب المجتمع المأزوم (أفراداً وكتلاً)، الفاقد للهوية، لحاجات أفراد العنفة، ذلك أنه يعيش حاجات أفراد أو كتله كتهديد له فيصدهم بالعنف. فهو مجتمع مُغْتَصَب بالأساس لا يستطيع أن يمنح أفراد أي دعم وشعور بالأمان والمواطنة والتعاطف والمساندة.

تعمل قوة الدافع العدوانية الهدام بما تنتجه من تصورات استعرافية مشوهة *distorted and deformed Cognitive Schemata* على صد أو تحريف أية نزوعات لتحقيق الارتباط الإنساني الذي بدوره يعمل كقوة معاكسة للعدوانية الكامنة، ومنبع لطاقة الحب وأساس لعلاقة مواطنة ناضجة. وعندما يتأذى تحقيق الحاجات الإنسانية للارتباط، فإن الصبغة الغالبة على الأفراد والكتل الاجتماعية هي الحيرة واليأس واللاحول، وفقدان القدرة على بناء علاقة مواطنة متحررة من التوتر بالبيئة المادية والاجتماعية. والنتيجة علاقة عدم انتماء –هوية ممزقة- تظهر في التدمير والتخريب والتشويه والتصحير واستنزاف اغتصابي للموارد لأقصى حد، وعلاقة عدم ثقة وفقدان أمان بالنفس وبالكتل الاجتماعية الأخرى والتفكك *Dissociation*، حيث يبدو مسرح الحدث الخارجي منفصلاً كلية عن مسرح الحدث الداخلي –هوية متناقضة-، أو انتماء زائف- هوية مستعارة- وضياح –هوية غائمة.

تشكل مشاعر الارتباط البنئ النفسية العلانقية كالحب والبهجة والتعاطف والفخر والأمل والتفاؤل ويسبب افتقادها مشاعر القلق والغضب والحزن والألم والذنب والخزي والإثم والعار. وتقود اضطرابات الارتباط إلى صعوبات في تنظيم الانفعالات، فتتسم التصرفات الفردية الذكورية بالاندفاعية وزوال الكف والكبح كآلية ضابطة أخلاقياً، عندئذ تنفلت الأخلاق من عقالها ويتعطل التعاطف والشعور بالواجب والالتزام تجاه الآخرين وتكون الإناء مفرطة التكيف والخضوع. واضطراب تنظيم الانفعالات هو العنصر الرئيسي في الاضطراب الحدودي، والذي يمثل أساس التطرف الفردي والاجتماعي. فالأفراد أو الكتل الاجتماعية التي توارثت الارتباط المزعزع غير الآمن تختل لديها القدرة على المشاركة الاجتماعية، فيعمل الدفاع النفسي على توجيه طاقة عدائية هدامة نحو الكتل الأخرى لأنها توقظ فيها مشاعر التهديد، أي الخوف من التقارب والاندماج. والتصوير الاستعرافية المرافقة صورة الآخر المختلف المهدد (الموقف لقلق الارتباط –المشاعر البدائية الأولى من التهديد) والتي تعيق التقارب والاندماج.

تتشكل جذور مشاعر الانتماء والتماسك من مقدار الارتباط الآمن (الثقة، الثبات، التقبل، الرعاية، الحماية) والاستقلالية والكفاءة الذاتية ومشاعر الهوية والحرية في التعبير عن الحاجات والانفعالات والتلقائية والوعي بالحدود الواقعية والتحكم بالذات. ويعمل القمع والعسف وسوء المعاملة والتعرض للغبن والإجحاف والظلم على المستوى الفردي والاجتماعي، وعدم تكافؤ الفرص والتربية القائمة على الخزي والتخويف، ومشاعر الذنب العميقة، وعدم الاعتراف والتقبل، والترهيب الديني من قوة عليا جبارة قاهرة صارمة لا تعرف الرحمة

(صورة الإله-الأب)، والمظلومية التاريخية (الضحية القاتلة) والتهميش والنبد الاجتماعي والاقتصادي (الجيل الثاني والثالث من المهاجرين) على تسميم تحقيق هذه الحاجات، فيصبح الأفق مسدوداً أمام الأفراد والكتل على فرص ومساعي التغيير والتحكم، ويفتح الباب على إدراك نزوعات الشر المقيتة وعدم الصلاحية (يأس الحياة وعبثية الوجود فيها)، وبالنتيجة يدفع قهر التنظيم الذاتي والانفعالي والدفاع النفسي الهدام إلى أشكال ضارة من التأقلم مع أوضاع ضاغطة تتمثل إما في الانصياع الأعمى للسلطة والتبعية، أو من خلال الهروب إلى التعاطي والإدمان والكحول والانسحاب والتجنب وفرط الإثارة، أو من خلال التعويض المفرط والذي يتجلى في العداوة واستغلال الآخرين والتطرف السياسي والديني والتعصب المقيت والعنجهية النفسية والنرجسية المرتدة والقاتلة.

أساس هذا ينبع على المستوى الفردي من علاقة مأزومة بالأم المسلوقة اجتماعياً (المغتصبة نفسياً) الفاقدة بالأساس للإحساس بكيانها البشري، سبية المجتمع، بغطاء سلطوي ديني، أم تعيش مشاعر التهديد منذ اللحظة الأولى لوعيها، علاقتها بذورها تتحدد بتصويرات استعرافية Cognitive Schemata مُهَدَّدة، المولدة لعلاقة مشحونة بتوتر لانهاية له. يفقد المجتمع الممزق الهوية قدرته على الارتباط، وينشأ أبناؤه عبر الأجيال ليصبحوا رجالاً عنيفين صادمين ("بنية الجاني") في حين تكون لنسائه على الأغلب بنية الضحية والتي تلحق الأذى بغيرها تعويضاً عن الغبن الذي لحق بها ويستمر تشتت الهوية وتمزق الارتباط في الأجيال التالية. وفي منظومة الارتباط المصدومة بالعنف، تسود المشاعر السلبية كالخوف أو الغضب وبالمقابل تتعطل فاعلية الحب كقوة انفعالية دامجة مخففة للتوتر وبانية للتماسك ومحقة للثقة الأساسية – الصمغ الرابطة اجتماعياً- ومعافية من الصدمة.

ينشأ الأفراد في المجتمع المأزوم مهددون وجودياً منذ بداية حياتهم، مهددون لا شعورياً من الأم المسلوقة (غضب الأم) ومن المجتمع المأزوم (غضب السلطة، الاستبعاد، النبد، التهميش الاجتماعي)، وعبثاً يحاولون مواجهته بلا طائل، فيعمل الدفاع النفسي فعله، إذ حتى يتمكن الأفراد التأقلم والتخفيف من قلقهم الوجودي لابد من فصح القلق، أي طرد مشاعر الغضب والحزن والألم، فيتم على المستوى النفسي تفعيل آلية تشويه دفاعي تحجب الوعي، مفادها صد وطرد فكرة الشر عن مصدر التهديد (المسؤول الحقيقي عن الحالة، الجاني) وإنكار الوعي لفكرة أنه يمكن أن يصدر عنه فعل شرير وتضخيم مفرط لما يمكن أن يصدر عنه من التفاتات توحى بالاهتمام ويتحول بالتدريج إلى عدو فكرة تناقض ذلك الخلاص، ويزداد تعلقه به ليس خشية على الجاني بل خوفاً

على نفسه، فيبدو الأمر للخارج غير مفهوم، كيف يتحول المقهورين والمسحوقين إلى حماة لجلادهم؟.

والمكافئ الاجتماعي الظاهر لهذا هو ذلك الالتصاق المفرط بالتكتلات القبلية، العشيرة، الطائفة، الحزب، أو التقديس الإلهي المفرط لشخصيات ديماغوجية تتلبس بعباءات الدين والوطنية والقومية وإضفاء الصفات القدسية شبه الفصامية على فكرة الوطن والارتباط الانفعالي الخيالي به – عملية نفسية أولية- على الرغم من كل العنف والعسف والقهر والظلم الممارس على الإنسان. فالفرد المحتاج للاندماج والارتباط يسلك هنا تجاه بيئته (أسرته، قبيلته، مجتمعه، وطنه) سلوكاً تعليقاً خاضعاً مشحون عاطفياً، على الرغم من كل العنف الممارس عليه. تلك الصورة الوهمية أو الهذيانة للإحساس بالانتماء تعمل ككايح لقلق النبذ والعزلة وفقدان الإحساس بالمساندة والمواطنة الخادعة.

يطور الفرد المأزوم في المجتمع الممزق الهوية ارتباطاً متناقضاً: فهو من جهة يقدم نفسه ضحية لكتلته الاجتماعية لتساعده على البقاء في نوع من التواطؤ التعايشي معرضاً نفسه لخطر واقعي، بأن يتم استغلاله، يتم تشويه الحقيقة له؛ ذلك أنه لا يمكن توقع نزوات الكتل المتسلطة الممزقة فاقدة الهوية (الديماغوجية وغيرها مالكة السلطة) الساعية بأي ثمن لخلق صورة مرضية لهوية متماسكة –مزيفة، محافظة على الانقسام (الحدودية) مستحضرة قهر التكرار كمادة لاصقة. المجتمع المأزوم فاقده الهوية لا قدرة له على التماسك، الرجال فيه يتحولون إلى جناة والنساء إلى ضحايا، إنها بنية الجاني والضحية. وكلما كان المجتمع أكثر ضياعاً كان أفراداه أكثر تطرفاً.

العواقب: القلق الدائم من عزلة المجتمع ومخاوف اجتياف ومشاعر الغضب والكره للمجتمع والحدق عليه، وفي الوقت نفسه جوع وتوق للتكيف معه، تأرجح بين الأمل واليأس، في أنه مازال من الممكن تحقيق التماسك، وإيجاد الهوية.

يحصل ذلك عن طريق الانقسام العمودي والأفقي؛ فينقسم الإحساس بهوية المجتمع وكذلك بالهوية الفردية إلى هوية مدركة مأزومة وإلى هوية أخرى غير واعية. والنتيجة: تعيش الكتل الاجتماعية وأفرادها المشكلين لها خبرات اغتراب: اغتراب الواقع واغتراب الشخصية، والتي تتجلى في مكونات (أنماط شخصية، تصرفات) موجودة إلى جانب بعضها ولا تدرك وجود بعضها. الجزء غير الواعي فيها مغطى وغير مكشوف لكنه موجود، يبدو كما لو كان في قفص زجاجي غائم، غير واضح، لكن تجلياته تبرز من خلال المشكلات الاجتماعية (طيف التجليات الاجتماعية واسع: بدءاً من صدام المجتمع وانتهاء بسرطان المجتمع). الانقسام العمودي يكون

بين الماضي والحاضر. الماضي الذهبي الجميل، والحاضر القبيح. النتيجة: من خلال هذه الآلية الدفاعية يصبح من المستحيل على الوعي إدراك أن الماضي لم يكن كله جميلاً، وأنه مجرد صورة من اختراع مجتمع مأزوم (وفرد مصدوم).

أما الانقسام الأفقي أو التفكك الأفقي horizontal Dissociation، أو الكبت، أو الانفصال عن الواقع، فإنه يمثل آلية للتقليل من شدة التوتر المدرك، تحاول التعامل مع واقع منفر ومقبت يصعب التعامل معه كوحدة كلية، معطلة بذلك الوظيفة التكاملية للوعي والذاكرة والإدراك والهوية، نتيجة لعجز الدماغ على القيام بوظائفه في تمثيل واستيعاب وتنظيم المدركات زمانياً ومكانياً في الذاكرة. وهو يتجلى في انبثاق خبرات داخلية متناقضة في ساحة الوعي: على المستوى الفردي يظهر الفرد للخارج عظمتة ويعيش هذه الخبرة في حين يشهد نفسه من الداخل على أنه بلا قيمة وتافه. وعلى المستوى الاجتماعي يتباهى المجتمع بقيم أصيلة أغلبها صور منبثقة من أوهام الماضي البعيد في حين يعرف أن داخله فارغ منخور وأجوف.

وظيفة الانقسامات إيجاد الحل الوسط يضطر فيه الوعي إلى التآرجح المستمر بين حالتين وجدانيتين متناقضتين، دون أن يتمكن من إدراك التدرجات المختلفة بشكل متزامن. وتساند الانقسام آليات دفاع أخرى غير ناضجة مثل الإنكار والإسقاط، والتبخيس أو التقديس أو التماهي الإسقاطي. في ظل كل ذلك ونتيجة له يحدث خلل بنيوي أساسي فيصبح القتلة أصحاب القانون والدستور، ويطلب الناس الأمن والأمان منهم ويحل الموت بالاستسلام والخنوع محل الموت بالرصاص. أما القلة القليلة الباقية من دعاة السلم والعدل والقانون وغيرهم، فلا يعود لهم أثر فهم إما قتلوا أو همشوا بالسخرية والهزاء والمحاصرة والتجاهل والعزل، وتصبح الأكثرية مصفقه لمبشرها بالجهل والموت.

ولدى مجموعات أخرى يصاب الوعي بحالة من انسداد الأفق وتضييق الخيارات أمام الأفراد. فعلى الرغم من أن المأساة الاجتماعية إلا أن فكرة الخلاص المسيطرة هي فكرة الخلاص الفردي، فيتغلغل اليأس وقلة الحيلة والاستسلام. وحتى آليات الدفاع تصبح في هذه الحالة مهددة بالفشل، حيث أن الخيارات المرة ستصبح جميعها متساوية وسينقاد الإنسان إلى مصيره دون أدنى محاكمة منطقية. أن يصبح المرء قاتلاً أم مقتولاً، مغامراً بحياته ومسلماً نفسه لقطاعي الطرق وشاذ الأفاق المتاجرين بالبشر، غارقاً بالبحر أم مرمياً على شاطئ مهجور، فكلها سيات. وعلى الجانب الآخر من الوعي المظموس، تظهر سلوكيات فئات من البشر من الجنس والعرق نفسه وجود أزمة هوية عميقة، هوية عقيمة مزعزعة، هوية أقرب للعنصرية، إلا أنها ليست كذلك بل هي تعكس أزمة

قلق وجودي مرعوب من كل ما حوله، ويريد التعجيل بالخلاص إلى جنة الوهم الموعودة لكنه لا بد أن يفقد جنته الأرضية في الوقت نفسه.

يتحول العقل المصدوم في المجتمع المأزوم المشتت الهوية إلى عقل مسدود المسارات، بالارتباط مع تغير في الوظائف الدماغية القشرية العليا، وسيطرة المناطق البدائية اللازمة للحفاظ على البقاء وانخفاض القدرة على السيطرة والتحكم في مناطق الفص الجبهي من الدماغ: المكافئ الذهني لهذه التغيرات حصول تشويه في الطريقة التي تفسر فيها الخلايا العصبية في الدماغ ما يردّها من المحيط من معلومات (الخلل في قدرة الدماغ في استقبال ومعالجة واستيعاب المعلومات الواردة إليه)، والمكافئ الاجتماعي لهذه التغيرات تأسيس ثقافة هذيانية مبنية على الخرافة تسيطر على الحياة العامة والخاصة تنتشر في كل مكان وعلى جميع المستويات في الشارع والمدرسة والبيوت، والمساجد والكنائس، تعبر عن نفسها بالانشغال المفرط في قضايا غيبية، ونبد الآخر المختلف والخطر والغبشة والتبخيس من منجزات العلم، وعلى المستوى الانفعالي تقود الحصارات في الدماغ وبالتعاقد مع ثقافة الخرافة إلى سيطرة مشاعر الكره والحقْد؛ حقد وكره ضد الذات أساساً بما يشبه الافتراض الذاتي وموجه نحو الخارج بطاقة تدميرية هائلة.

في علم النفس الحديث فإن السلطة عبارة عن استراتيجية للسلوك الاجتماعي تتكون في أساسها من استغلال الآخرين، حتى ضد إرادتهم وذلك للمصلحة الخاصة وفي سبيل خدمة الأهداف الذاتية باستخدام استراتيجيات تأثير على الآخرين تتمثل في الكذب (الخداع) والأذى، وإحدى وسائلها في هذا تأجيج العدوان وإبقاء مشاعر التهديد حية. ففي سبيل استمرار فاعلية آليات الدفاع والتي وظيفتها بالأساس تشويه الواقع وإيجاد حلول مؤقتة غير سوية وتعطيل قوى الفعل الوعي الهادف وتشويه الواقع على المدى البعيد وخلق بنية إدراك مشوهة للواقع تحل محل التصور الفعلي، تعمل القوى المسيطرة باستمرار على إبقاء الدافع العدواني الهدام حياً ومشاعر التهديد نشيطة. ذلك أن إبقاءه حياً متجدداً يعمل بشكل تلقائي على تعطيل قوى التحكم والسيطرة في المراكز الدماغية المسؤولة عن التحكم واتخاذ القرار الوعي المسؤول الفص الجبهي بشكل خاص، وفي الوقت نفسه تنشط مراكز الدماغ الأقدم من الناحية النشوية والتي وظيفتها الحفاظ على البقاء كهدف أساسي باتخاذ إجراءات إما للهجوم أو الهرب.

وبما أن طاقة الدافع العدواني طاقة يصعب التحكم بوجهتها في حالة الشعور بالتهديد وكي تضمن القوى المسيطرة استمرارية طمس الوعي وعدم ارتداد الدافع العدواني عليها لا بد من خلق مكافآت اجتماعية عقائدية للقوى العدائية الهدامة المنشطة باستمرار.

الحيلة الدفاعية المستخدمة هنا هي إضفاء النزعة القدسية وفكرة الانتقاء الإلهي والفئة الناجية والأمة الخالدة على هذه الطاقة العدائية كأداة تضليل وخداع تكمن ورائها غايات أخرى للقوى المسيطرة. فيصبح القتل والتدمير والتهجير حرباً مقدسة يرفعها ويُشرع غاياتها رعا ع الدين وهكذا يتحول إدراك الواقع إلى قناعة مَرَضِيَّة بالقدرة الكلية، ويزاح الله عن عرشه ليحل محله القائد الملهم والقيصر الجبار والزعيم العظيم والخليفة المؤمن والسيد المعصوم والولي الفقيه، والمهدي المنتظر والمفتي المأجور والداعية المراهق-حتى لو أخطئوا-، يقابله متواطئاً معه شذاذ الآفاق الذين وجدوا الخلاص الإلهي على أيدي هؤلاء.

للكتل الاجتماعية المختلفة شعرائها وكتابها ورجال دينها. فيتحول "المتقف" في المجتمع المأزوم إلى شاعر وكاتب ومفكر الكتلة الاجتماعية، ومعتمد منها. الثقافة في المجتمع المأزوم ثقافة القطيع والكتلة والعشيرة الاجتماعية والسلطة والشيخ والأمير والحزب، يتصدر رئاسة الحركة الثقافية مثقف "متعلم" لا ثقافة فيه، قاحل مجذب، لا نبت فيه، يهذر غناء أجوف، يفرض فكره على مدارسها وتمول كتبه من السلطة، وتتصدر مقالاته الصحف الرسمية، ويتحول إلى نجم شاشاتها، يدرك المثقف وضعيته "المتزجرة" تلك، فيتضخم لديه الإحساس بعدم الأمان وضعف الثقة بالنفس. آليات الدفاع المسيطرة هي آليات غير ناضجة وَمَرَضِيَّة من نحو الاستعلاء ووهم الأهمية الذاتية، والقدرة على التأثير وصنع القرار والانفصام.

أما العلم بالمعنى الموسوعي باعتباره عملية منهجية من البحث والمعرفة القابلة للفهم المستقل عن الأشخاص في مجال معين ويأتي بمعرفة مبرهنة ومنتظمة وموثوقة، ولا يشغل نفسه كثيراً بالقضايا الغيبية والإيمانية، فيظل ظاهرة طارئة في المجتمعات المأزومة معزولاً عن سياقه "مهمشاً" تحت ضغط القوى الهدامة والمتواطئة من السلطة ورعا ع الدين، فتبدو القطعية بين العلم كمنهج تفكير وكوسيلة لحل المشكلات وهذه الكتل الاجتماعية واضحة عبر تهमيش العلم والعلماء وتبخيس المنجزات العلمية والعزلة والانقطاع عما يمت للتفكير العلمي بصلة، ويترك الناس تحت رحمة قلق وجودي هائل، يدفعهم إلى الانشغال الفكري بالغيبيات وعزو مصائرهم الفردية إلى قوى غيبية تروج لها القوى المسيطرة عبر المنجمين والدعاة والمخرفين بالعلم والطامعين بالسلطة منهم. ديناميكية العزلة والتهميش هذه تدفع العلماء للانكفاء واللامبالاة وعدم الإسهام الفاعل أو للهجرة، وسيطرة أشباه العلماء "المخرفين بالعلم".

وتنتشر الطفيليات انتشار النار في الهشيم، ويصبح وهم المعرفة، والادعاء "بالعلم" ظاهرة ترسخ التبعية وتعطل مسارات التفكير.

وفي حال تم تعميم المعارف المتوفرة حول آلية الصدمة وتعميمها على الكتل الاجتماعية المأزومة وعلاقتها بالسلطة -مع بعض الحذر في فرط التعميم- تنشأ بين الكتل الاجتماعية والسلطة علاقة تعايشية يمكن وصفها بأنها استراتيجية تسعى إلى البقاء وذلك من خلال تلاؤمها مع حاجات السلطة؛ الكتل الاجتماعية المأزومة تدرك ضعفها وعجزها وربما أزمته، تحتاج إلى خطة للبقاء والاستمرار.

وبما أنها مأزومة بالأصل فإن استراتيجيات البقاء التي تراها (آليات الدفاع الذهانية وغير الناضجة) هي إقامة نوع من التعايش ذات منفعة متبادلة، فتظل الكتل الاجتماعية في حالة عجز طفولي تغذي حاجة السلطة للشعور بالتحكم، بالمقابل فإنها تعيش عطاءات تلك السلطة على أنها منة لا يمكنها بلوغها لولا وجودها وتدرك أن استمراريتها متعلقة بالسلطة.

صورة الوطن تعاش هنا على أنها صورة السلطة، تجسيد صورة ذهنية للوطن في شخص، ومن ثم فإن العلاقة بين التكتلات نفسها ومع السلطة ليست علاقة مواطنة تقوم على الحقوق والواجبات وعلى عقد اجتماعي راشد بل على القيام بأفعال تنتظر هذه التكتلات الاجتماعية أن يتم مكافئتها عليها.

تتصف المجتمعات الناضجة بخصائص منها الثقة والأمل والاسترشاد بالواقع والوعي به والانفتاح على الآخر المختلف والقدرة على التنظيم والمسؤولية والتعاطف وتنظيم انفعالات أفرادها والقدرة على تحديد الحاجات والأولويات وغيرها كثير بالطبع.

أما الكتل الاجتماعية المأزومة فإن الآلية الدفاعية لديها هي التثبيت (وهي بالطبع ليست الآلية الوحيدة): أي السكون والتثبيت عند نقطة تاريخية معينة لا تتجرأ على تركها، وإن برزت في مرحلة ما من مراحلها محاولات لتجاوز التثبيت فإنها تكون عاجزة من تلقاء نفسها ومن دون مساعدة على القيام بتلك الخطوة للأمام. وهنا لا يمكن للتطور والنمو أن يتحقق في ظل قوى مثبطة لذلك لا مصلحة لها في ذلك النضج، وهو ما يحصل من خلال تواطؤ قوى التسلط السياسي والاجتماعي والديني (ديناميكية ذاتية مولدة لنفسها ومدفوعة في الوقت نفسه من قوى خارجية)، التي تواجه هذا النمو والنضج بوسائل عنف قاسية، الأمر الذي يقود إلى تفعيل وإحياء آلية أخرى تدفع هذه الكتل للوراء، تلك الآلية المعروفة في التحليل النفسي بالنكوص، والعودة للحالة الخيالية الأولى التي تثبت اللحظة التاريخية الماضية كتصوير مثالي موجود في الخيال فحسب، ولا تترك مجالاً لإدخال أية تعديلات على تلك التصويرية الاستعرافية الناشئة في لحظة الصدمة؛ ذلك أن ذكريات الصدمة المخزنة فيها، التي تعطل أية قدرة على التفكير المنطقي والواعي وتدفع إلى

البحث الدائم عن مخرج من تلك الأزمة بطريقة غير سوية تعيق الحل، بل وتمنعه. والمكافئ السلوكي لهذا هو الاستعداد الدائم للاستثارة لأبسط الأسباب، وأفعال العنف القاسية التي تتصف بها هذه التكتلات ضد الآخر المختلف وضد نفسها وبتأجيج من السلطة المتحكمة.

المجتمعات المأزومة مجتمعات تحيط نفسها بقفص زجاجي صلب مليء بالتشققات تحجب عنها الرؤية السوية ولا تسمع غير صدى ذاتها. وبالتالي فإنه من الصعب عليها الخروج من أزمتها سوى بتدمير نفسها من الداخل (العنف الذاتي)، تخاف من الانفتاح على نفسها ومواجهة الأجزاء المأزومة فيها. وبما أنها باستمرار في استراتيجية بقاء فقط، فإنها تعيش في حالة دائمة من فقدان الثقة: إذ لا تثق التكتلات المأزومة بأحد (نظرية المؤامرة)، تتجلى تلك من خلال الكثير من المظاهر والتناقضات غير المفهومة لا من الداخل نفسه ولا من الخارج. التناقض يلاحظ في الحاجة للمساعدة من الخارج غير أنها لا تتقبل إلا تلك المساعدة التي تعزز لها استراتيجيتها المأزومة والمشوهة التي تعتمد في البقاء، أي المحافظة على الانقسام وتعزيزه وتكثيره؛ فهي تتقبل تلك المساعدة التي لا تمس الأسباب الأساسية وإنما تلك التي تظهر على السطح (التركيز على الأعراض وتجليات الظاهرة وليس على الأسباب)، وتتنكر الواقع الصادم، تعمل بالتقييمات والاتهامات بدلاً من التوضيح والفهم وتولد أزمت جديدة، وتسعى إلى توريث الآخرين في أزمتها.

وعندما تتعرض الهوية الثقافية التي يتبناها الإنسان للتهديد ينشط في اللاوعي قلق الموت "قلق الفناء". وبما أن الطغاة والمستبدون والمتطرفون العقائديون والأحزاب المنغلقة ذات الفكرة التعصبية الجامدة تفتقد للرؤية الديناميكية لحركة التاريخ وعقيدة معرفياً، فإنهم يبرعون وبطريقة خبيثة -بوعي أو من دون وعي- في إيقاظ مخاوف الفناء لدى أتباعهم، عندما تتهدد مصالحهم بل ولا يتورعون في ارتكاب جرائم بحق أتباعهم لتأجيج مخاوف الفناء أكثر وأكثر. ومن خلال استثارة "قلق الموت" يمكن دفع مجموعات سكانية كبيرة خاصة عندما تكون مجتمعات مأزومة وطائفية إلى الشعور بتهديد للهوية الثقافية فيتحول الإنسان من خلال ذلك إلى متعصب قومي أو ديني أو معاد للآخر لا يعرف التسامح.

الدراسات النفسية حول قلق الموت تشير إلى أن الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم محافظين يصبحون أكثر رفضاً للآخر المختلف وأقل تسامحاً عندما يتم إيقاظ قلق الموت لديهم. "قلق الموت" قد يدفع أولئك للاندفاع نحو الموت نفسه للتخلص من ذلك العذاب الذي يؤرقهم في

اللاوعي وذلك بجعل التجربة مشتركة، مدمرين معهم أكبر كم ممكن من الآخر المختلف، متوهمين أنهم يمنحون أنفسهم الخلود الأبدي في جنة متوهمة.

المتطرفون العقائديون بكافة أطرافهم يدفعون أتباعهم للموت كآلية دفاعية لصد قلمهم الذاتي من الفناء وتسكين ذلك العذاب النفسي المرتبط بفكرة أنهم فانون- مغلفين كل ذلك بأهداف عليا-. وفي "الأسطورة" التاريخية يحتل التعويض مركزاً متقدماً في علاقة الإنسان المأزوم بنفسه وبيئته. ولعل إحدى وظائف التعويض هنا الإسهام بمزيد من طمس الوعي لأن الوعي يتطلب الجرأة على المواجهة والتغيير، كشرط من شروط التوجه نحو المستقبل بدلاً من التوجه نحو الماضي والتثبيت فيه. تعمل أسطورة التاريخ للمجتمعات المأزومة على رسم صور ومواقف وهمية أو معزولة عن سياقها للماضي، ليبقى حياً حاضراً ممتداً لا ينتهي.

وفي الوقت الراهن تعمل وسائط الإعلام والوسائط المتعددة بوصفها أكبر جهاز خداع وتزوير ونفاق على تأصيل لوعي زائف من النوع الفيروسي والذي لا يتيح للوعي، المأزوم بالأصل، أية فرصة للمحاكمة المنطقية والمواجهة الفاعلة، خدمة لمصالح ذاتية بعيدة عما هو طاف على السطح.

ومع افتقاد البعد الأخلاقي والقيمي والروحي تغرق الكتل الاجتماعية المأزومة هذه في عصبيات انتمائها عابر للحدود، أيديولوجيتها إيديولوجية "الحواكير والحارات ومضارب الخيام"، وتفكيرها هذياني النزعة إقصائي، يوزع صفة "الوطنية" على من يشاء وينزعها عن من يشاء مقابل طرف آخر يوزع صكوك الغفران والإيمان على من يشاء وينزعها عن من يشاء.

يستخدم الاستبداد الاجتماعي والسياسي والديني في المجتمعات المأزومة أدوات نفسية وخيمة من أجل ترسيخ علاقات السلطة بإشاعة ثقافة الخجل (التخجيل، والخزي) والتي تعمل بدورها على توليد مشاعر التفاهة لدى الأتباع (أفراداً وكتلاً). والمكافئ السلوكي المقابل لهذا يتجلى في التواضع الكاذب والمشوه، والتماهي بالمعتدي دون وعي منها أنها تمارس في السر ما ترفضه في العلن.

وظيفة ثقافة الخجل (التخجيل أو الشعور بالعار والخزي، الشعور بالنقص) يدفع الإنسان "الخلجان" إلى إخفاء نفسه؛ إلى الانسحاب، وتصغير نفسه واحتقارها؛ إنه يصغر نفسه، يحقرها ويحتقرها. ومن ثم تضمن القوى المسيطرة إصابة مجاميع كاملة من أفراد الكتل المأزومة بالشلل الذهني.

ومشاعر النقص ليست أكثر من مشاعر الخجل (مشاعر العار)، وهي تدفع الفرد للانسحاب والتنازل عن مطالبته بأن يكون على المستوى نفسه سواء من السلطة الحاكمة بوصفها ممثلاً له في ظل مفهوم العقد الاجتماعي والمواطنة. ولأن هذه المشاعر مؤلمة ومقيدة ويصعب تحمل هذا الشعور بالتفاهة من جهة، وضغط القوى المتسلطة على الإنسان المأزوم ليظل تحت رحمة ما يعذونه هم على أنه مخجل (أو عيب)، فإن آليات الدفاع كالتثبيت والنكوص والكبت تعمل على تخفيف التوتر الناجم.

مظاهر الأبهة والفخامة، واستعراضات القوة والقصور الشامخة والأبراج الشاهقة، وسيلة يسعى من ورائها المتسلطون وغيرهم إلى توليد الإحساس لدى أتباعهم بتفاهتهم وعدم أهميتهم: فتسود ثقافة (أين نحن من هؤلاء، أين نحن وأين هم) هذا الشعور يجعلهم يتوقفوا عن اعتبار أنفسهم مواطنين بل رعايا وأتباع، ويخجلوا من المطالبة بحقوقهم. في مجتمعات كهذه تسود مظاهر الإدمان والعنصرية والعنف بأشكاله والإساءة لسمعة الآخرين والعنصرية المتخفية المقيتة (النميمة وإطلاق الشائعات والمضايقة والتماهي بالمعتدي) كرد فعل لاشعوري على الأذى النفسي الناجم.

وماذا يبقى في النهاية غير التصرف بردود الفعل العدائية، انتقاماً للذات المأزومة والممزقة تحت شعار الانتصار للدين، والولي والفقير وانتقاماً من الكفرة أو المارقين أو المعارضين الذين يتم تحديدهم بشكل عشوائي، ليس بسبب كونهم كذلك بالفعل، بل لأنهم يشكلون موضوعاً للإسقاط، يرى فيه ممارسو العنف والإرهاب والديماغوجيين ذلك الجانب المخفي فيهم، ألا وهو حقيقة أنفسهم، حقيقة أزماتهم وصدمتهم، فيحاولون الهرب منها للخارج، وتكون النتيجة الغرق الذي لن ينجو منه أحد حتى أنفسهم.